جمالية المكان في رواية "أشباح الجحيم" للروائي "ياسمينة خضرا"

سماحي رفيقة و أ. د. تحريشي محمد، جامعة طاهري محمد بشار

ملخص:

يتناول هذا البحث جمالية المكان ويختار رواية من الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وهي رواية "أشباح الجحيم" للروائي "ياسمينة خضرا" لا سيما أن هذه الرواية بالذات حافلة بالأمكنة التي تتجاذب وتتنافر مشكّلة بذلك تضادات ومتناقضات فكانت ترمز للفرح والسعادة من جهة وللحزن والأسى من جهة ثانية، إن المكان في هذه الرواية لم يكن جمادا أبكم أصم وإنما كان ينبض بالحياة، روح تتحرك وتحس وتشعر حاله في ذلك حال الشخصيات.

Abstract:

This research deals with aesthetic of place and for that we have chosen a novel written in French by the Algerian novelist Sirens Baghdad "Yasmina Khadra". This novel represents many contradictions as it is full of places that seem very close and very far at the same time symbolizing happiness and joyce in one hand and sadness in the other hand. Place here was not dead, it used to be alive and vibrant like a spirit with feelings representing this in its characters.

الكلمات المفتاحية: صفارات إنذار بغداد، أشباح الجحيم، جمالية المكان، كفر كرم، بيروت، المسجد، الجامعة، المقهى.

نبذة عن الرواية:

أشباح الجحيم أو صفارات إنذار بغداد هكذا ترجمت رواية " Les sirènes de Bagdad" للروائي ياسمينة خضرا التي نشرت عام 2006 ويبلغ عدد صفحاتها 366 صفحة وترجمت بمختلف اللغات ومنها ترجمتها إلى اللغة العربية عام 2007 من

قبل المترجم محمد ساري ويبلغ عدد صفحات الرواية المترجمة 382 صفحة وهي من الحجم المتوسط.

تناقش الرواية مأساة القضية العراقية والتداخل المريع بين المقاومة المسلحة والعمليات الإرهابية، تدور أحداث الرواية في قرية شبه معزولة عن العالم سكانها من أهل البادية تسمى بـ كفر كرم في العراق. تنتقل الأحداث من كفر كرم إلى بغداد ومن ثم بيروت، تحكي قصة شاب لا اسم له، شخصية بلا هوية، لكنك لا تستطيع تجاهله بأي شكل من الأشكال، عاش ُمسالماً كارهاً للعنف، يتعرض لصدمات كثيرة يتجاوزها بالهروب إلى عالمه الفني، لا شيء غير جهاز الإستيرو، أولى الصدمات ارتبطت بحادث اغتيال الجيش الأمريكي للصبي المختل ذهنيا "سليمان" والذي كان يقلّه بسيارة جار له إلى مستوصف بعيد.

ينهار الشاب، ذي العشرين ربيعا، بالكامل أمام جثة الطفل المختل الممزقة، وجمجمته المنفجرة بحجة أنه كان يسعى لتفجير نفسه أمام حاجز المراقبة، ليكشف الجنود أن هذا "المعتوه" لم يكن يحمل شيئا، وأنهم أخطأوا الهدف..تماما كما أخطأ رئيسهم قبلهم وغزا العراق! تنفجر الصدمة الثانية في وجهه مع صاروخ سقط في ليلة عرس بإحدى البساتين، الخوف نفسه والرعب نفسه، الفارق الوحيد هذه المرة هو أن القتلى كانوا بالمئات، معظمهم من النساء والأطفال، عمت الفوضى المكان جثث مترامية، يرتفع أنين الجرحى ويعلو الصراخ والأنين ومن بينهم صراخ أب فقد أفرادا من أسرته يصرخ فيقول: "انظروا، لا يوجد إلا النساء والأطفال. كنا نحتفل بعرس زواج. أين الإرهابيون؟"[1] بعد التفتيش لم يجد الأمريكان شيئا، وخطأ جديد! انطلقت الضربة، فتحدّد المصير. ينتفض الشاب عند الصدمة الثالثة التي لم تبق فيه شيئا عندما اقتحم العساكر الأمريكان منزله ومن هنا كانت نقطة التحول في حياة الشاب، يقول: "أدركت أن لا شيء يبقى مثل سابق عهده، وبأنني عاجلاً أو آجلاً، ومهما حدث، ومهما سيحدث حُكم علي أن أثأر للعار الذي أصابني"[2]، تبدأ حكايته من

منتصفها، لتنتهي بما لم يكن متوقعا أبدا. " سقط أبي على ظهره، التريكو الممزّق في الأطراف على وجهه، البطن شديد النحول، مدعوك، رمادي اللون كما بطن سمكة ميتة... ورأيت، فيما كان شرف العائلة يسقط أرضاً، رأيت ما لا ينبغي أن أراه أبداً، ما لا يليق لابن بار، محترم، لبدوي أصيل، أن يراه أبداً؟"[3] .

ينتفض هذا العراقي الذي لا يحمل اسما ويحمل عارا أكبر من أن يندثر، لا يعود إلى بيته يودّع صديقه كاظم وشقيقته، هنا يبدأ الفصل الثاني: "بغداد"، لا شيء فيها غير الدمار، القتل الجماعي لعدد كبير من المواطنين، فيما يبقى الجنود الأمريكيين بعيدين عن مراكز الخطر والموت، يتكفل به صديقه ثم يرسله إلى رجل آخر فينضم إلى صفوف المقاومة، لا شيء في رأسه غير الانتقام لأبيه وعائلته يقول: " كنت الطفل الوحيد في عائلتي. وأبي عاجز، فتعود إلي إذا مهمة الأخذ بالثأر، حتى وإن تركت حياتي... وسأرمي بقسطي من الجثث داخل نهر دجلة المقدس، آكل اللحوم الآدمية رغما عنه"[4] ، ظلّ منتظرا بفارغ الصّبر لقرار منحه عملية انتحارية، يفجر من خلالها نفسه وينتقم لعار والده، يمضي الوقت ولا يوكل له شيء، يقتل أفراد المقاومة صديقه الأول الذي أعانه في بغداد تحت حجة الوشاية، ويكتشفون لاحقا أنه خطأ. أخيرا يأتيه الفرج يكلف بمهمة، يفهمونه بحذر شديد، لا يخاف ولا يتردد بل ويصر بشدة على القيام بهذه المهمة، هو فقط وما من أحد غيره.

يسافر إلى بيروت "جئت إلى بيروت لأنني أرفض أن أكون شبيه هذه الخرقة الآدمية، أعيش رجلا أو أموت شهيدا لا يوجد بديل ثالث لمن أراد أن يعيش حرا"[5]، لينتقل بعدها إلى لندن سيقتل أكبر عدد من الناس المتجمعين في الأماكن العمومية. حاملا معه الفيروس "سأحمل هذا الفيروس باسم قومي ، وباسم بلدي"[6]، يتجه إلى المطار سيركب طائرته المتوجهة نحو لندن، يتطلع نحو الناس القابعين أمامه، عجوز تنتظر اتصالا، رجل يتابع زوجته الحامل بكل لطف وعناية، عشيقان من جنس أوروبي يوصلان رسائل حب فيما بينهما، يصعد

الجميع إلى الطائرة ويتخلف هو عن الركب، يتنازل عن مهمته، وينتظر حضور مسافرين جدد، وجهتهم باريس هذه المرة، يخرج تائها من المطار: "تداخلت همومي مع ذكرياتي...تلك المرأة في المطار التي تتفقد هاتفها النقال، ذلك الأب المرتقب الذي لم يعرف لنفسه استقرارا من كثرة الفرح، وذاك الزوج الأوروبي الشاب وهما يتبادلان القبل...يستحقون أن يعيشوا ألف سنة، ليس من حقي الاحتجاج على عشقهم العلني، ولا التعكير على أحلامهم، ولا تعنيف ترقبهم . ماذا فعلت بمصيري، أنا؟ عندي واحد وعشرون سنة، واليقين أني ضيعت حياتي واحدا وعشرين مرة"[7]، إن الشعور باستمرارية الحياة وبحق الآخرين فيها هو الذي دفع بالبطل أن يستيقظ، ويتراجع عن المهمة الموكلة إليه، فهو لا يتنظر أن يسامحوه وإنما في أن يعجلوا في نهايته، "ليعجلوا بالنهاية. لا ألومكم. على كل حال، أنا لا ألوم أحدا"[8].

جمالية المكان:

المكان من الناحية اللغوية يعني الموضع الثابت ، المحسوس القابل للإدراك، يقول ابن منظور:"والمكان-الموضع-والجمع أمكنة-وأماكن جمع الجمع والعرب تقول: كن مكانك واقعد مقعدك، فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه، وإنما جمع أمكنة فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية[9]، ويتنوع من حيث المساحة والحجم والشكل. أثبت المكان منذ القديم دوره القوي في تكوين حياة البشر، و ترسيخ كيانهم و تثبيت هويتهم، و تحديد تصرفاتهم و إدراكهم للأشياء لكونه شديد الالتحام بذواتهم[10].

المكان وحدة أساسية من وحدات العمل الأدبي والفني في نظرية الأدب، وقد تطور من هذا المفهوم إلى مفهوم الزمكانية (الزمان/المكان Chronotope) ، الذي أطلقه باختين عام 1938 في كتابه «أشكال الزمان والمكان في الرواية»، غير أن جهود باختين النقدية ظلت مغمورة حتى ستينيات القرن العشرين، ثم انتقلت إلى الغرب في السبعينيات اللاحقة.على أن مصطلح المكان والمكانية والزمكانية قد تطور أيضاً بتأثير علم

السرد ولا سيما انجازات غريماس إلى مصطلح الفضاء في الانفتاح أو الحيز في التحديد والتضييق والاتساع والشمولية وتداعياتها النصية، والفضاء الروائي هو «الحيز الزمكاني الذي تتمظهر فيه الشخصيات والأشياء متلبسة بالأحداث تبعاً لعوامل عدة تتصل بالرؤية الفلسفية وبنوعية الجنس الأدبي وبحساسية الكاتب أو الروائي»[11]، والمكان بدون شخصيات لا يصبح مكاناً وإنما قطعة أرض فضاء، فهي التي تجعل المكان حيا بحركتها. "والأمكنة، بالإضافة إلى اختلافها من حيث طابعها ونوعية الأشياء التي توجد فيها تخضع في تشكلاتها أيضاً إلى مقياس آخر مرتبط بالاتساع والضيق أو الانفتاح والانغلاق، فالمنزل ليس هو الميدان، والزنزانة ليست هي الغرفة، لأن الزنزانة ليست مفتوحة دائماً على العالم الخارجي بخلاف الغرفة، فهي دائماً مفتوحة على المنزل، والمنزل على الشارع، وكّل هذه الأشياء تقدم مادة أساسية للروائي لصياغة عالمه الحكائي، حتى أن هندسة المكان تساهم أحياناً في تقريب العلاقات بين الأبطال أو خلق التباعد بينهم"[12]، وقد يكون المكان في الرواية مفترضا أو مجازيا وهندسيا ومعادا وتجربة معيشة وجاذبا وطاردا وأليفا.

وهناك أيضاً مكان ذو بعد و احد، وآخر متعدد الأبعاد، وثالث تاريخي أو نفسي أو واقعي أو تعبيري أو ذاتي، ولا تخرج هذه الأنواع والأبعاد عن أن تكون صفات للأمكنة الروائية، يمكن اجتماعها كلها في رواية واحدة من غير أن يعين هذا الاجتماع على تحليل بناء المكان في هذه الرواية، ذلك أن جمالية المكان لا تتجسد بتسمية الأمكنة الروائية وتحديد أبعادها وإطلاق صفات مفردة عليها، بل تتجسّد بوساطة الطريقة الفنية التي تقدم أمكنة مرتبطة بالحوادث والشخصيات والمنظورات، قادرة على تشييد فضاء روائي نابض بالحركة والحياة والدلالة. و لأهمية المكان في الرواية نجد الكاتب يحّمله أبعادا جمالية عبر التوظيف الدلالي المحكم لمكوناته، ومن خلال علاقته بالشخصيات.

جمالية المكان في رواية "أشباح الجحيم":

المكان في العمل الروائي عنصر من عناصره الفنية، و" هو معطى سيسيولوجي لا يتوقف حضوره على المستوى الحسّي، بل يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني حافرا مسارات و أخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءا صميميا منها، ذلك أن المكان هو الفسحة، أو الحيز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا و العالم، من خلاله نتكلم و عبره نرى العالم، و نحكم على الأخر. إنه الشفرة(CODE) التي نتحصّن بها في مواجهة الآخر"[13].

لا يتحقق النص إلا بوجود هذا المكان الذي تتصل فيه الشخصيات وتتواصل، وقد تعددت الأمكنة في رواية "أشباح الجحيم" منها: **بيروت** هذه المدينة التي تعد مليئة بالّزحام و البنايات بالإضافة إلى أنّها مكان لطلب الّرزق و العمل " فالّرواية هي الصورة الكلامية لتركيبة المدينة، فعلاقات الأشياء و النّاس داخل المدينة، هي ذاتها التي تتجلى في التخييل الموازي داخل الرواية"[14]، فالرواية تتجاذب فيها ثنائيتين ضديتين مكان جاذب وطارد، يقول الروائي على لسان البطل في شأن مدينة بيروت: "على الأقل حينما تكون في المدينة، وتجلس إلى شرفة، ترى مرور السيارات، والفتيات الفاتنات، تشعر بأنك موجود فعلا، بأنك تعيش ...ليس هذا إحساسي وأنا في كفر كرم"[15]، كانت المدينة مكانا قد استهوى البطل قبل رؤيته لها لكن سرعان ما غيّر رأيه "تخيلتها مختلفة، عربية ومعتزة بعروبتها. فكنت مخطئا. فهي ليست إلا مدينة يتعذر تحديد معالمها...مخيبة للأمل كمزحة باردة"[16]، هنا تظهر المفارقة بين المدينة قبل رؤيتها وكيف كانت تستقطب الزوار ومحبيها وتأسر قلوبهم وبعد رؤيتها وكيف تغيّرت نظرتهم لها، يردف قائلا: "إن في مرحها توجد وقاحة لا تستقيم، إن هذه المدينة تكذب مثلما تتنفس"[17]، إن وصف الروائي لمدينة بيروت على لسان البطل يشي بدلالات متعددة الأبعاد فهي مدينة تاريخية تقيم حدادا لاغتيال وزيرها الأول رفيق الحريري الذي اغتيل من عام، لكن الزائر لهذا المكان يجد العكس إنما الحزن أكذوبة لا وجود لها ويؤكد هذا قول البطل: " لم يكن

حدادها إلا واجهة، وذاكرتها مصفاة قديمة متعفنة، لهذا كرهتها منذ البداية"[18]، يرد عليه الدكتور جلال قائلا: "إنها مدينة تألمت كثيرا، لامست العمق...تستعيد عافيتها رويدا رويدا...أنا أجدها رائعة"[19]، ثم يقول الروائي في مقطع آخر "بيروت هي بيروت، لا تتغير، برغم شبح الحرب الأهلية الذي يحوم حول ولائمها ، تتصرف كأن شيئا لم يكن"[20]، تبرز بيروت كمكان يتأثر، يتألم يحب ويكره.

ومن بين الأمكنة أيضا **"كفر كرم"** هذه القرية النائية البدوية الواقعة في وسط صحراء العراق "كفر كرم قرية بائسة وقبيحة"[21]، فهي بالتأكيد لا تشبه المدينة تحتاج إلى مرافق، مؤسسات، سيارة إسعاف... فالمكان هنا ثابت لا يتحول. وهو بذلك يعكس توقف الحياة أي الموت بما يحمله من دلالات القبح والفناء يقول عمر –إحدى الشخصيات في الرواية- في حوار له مع البطل عن قرية كفر كرم..."أقسم لك. أختنق، أموت...ملعون أبوها..."[22] ، ويردف قائلا: "الغربان نفسها تتجنب التوقف عنده"[23]، على الرغم من أن أهل القرية فقراء إلا أنهم كانوا في أمن وسكينة "إلى غاية اليوم الذي، في حدائق بابل، جاء أنذال مدججون بالمتفجرات والأغلال ليعلموا الشعراء أن يكونوا رجالا أحرارا"[24].

إن هذا المكان الذي يعد إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم والذي يحتوي على ثمانية بوابات

هذه الحديقة بجمالها وروعتها الخلابة كيف تحولت من مكان جاذب يدخل المرح والسرور إلى قلب ناظره إلى مكان طارد يحفه الخوف والفزع نتيجة المتفجرات والأغلال التي كان يقذفها العدو كل حين. وعبر هذه المفارقة تكمن جمالية المكان في الرواية، ما يؤدي إلى إرباك القارئ وتشويش فكره عبر تلك الثنائيات الضدية.

انتقل البطل إلى **جامعة بغداد** هذا المكان الذي كان يجذب المثقفين من كل حدب وصوب "التحقت بجامعة بغداد شهورا قبل الاحتلال الأمريكي للعراق"[25]، إلا أنها دمرت

كباقي أماكن العراق يقول الروائي على لسان البطل "سلّمت الجامعة للمخربين ....ولم أضع قدماي في بغداد ثانية"[26]، ومن خلال هذا المقطع نلاحظ أن جنود الاحتلال استغلوا هذا المكان لأنه نبض أي أمة لذلك وظف الروائي تدمير الاحتلال لهذا المكان ليدمروا بذلك الطبقة المثقفة و ليجسد الأزمة التي يعانيها الشعب العراقي عامة .

مقهى السفير: يعد المقهى من الأماكن الشعبية التي يقصدها الناس لتمضية الوقت و الترويح عن النفس و في الشكل الظاهر لفكرة المقهى تكمن مقولة الوعاء لا يركن بساكنيه المؤقتين. بل يسوح بهم في ربوع أمكنة يتوقون إليها .هي ذي المخيلة الشعبية التي تتجمع أوصالها في ذلك الوعاء. فتكسبه جمالية خاصة[27]، يسير "مقهى السفير" ماجد أحد أقرباء البطل "لا يأتي زبائنه إلا من أجل اللعب بالورق" [28] ، أغلب زبائنه شبان لا عمل لهم، يقضون أوقاتهم في اللعب، "يرتاد مقهاه شبان بطالون، مفلسون، ينقضون عليه منذ الصباح الباكر ولا يغادرونه إلا مع غروب الشمس"[29].

إذن فالمقهى في الرواية مكان جاذب لشبان قرية كفر كرم فيه يجدون راحتهم ومضي أوقاتهم في اللعب بالورق فهو يشكل جزءا من حياة الشباب العاطل ولذا كان جاذبا مفعما بدلالات تشي بالفقر والحرمان وعدم توفر القرية على مرافق وإمكانيات تستقطب الشبان.

المسجد: يوجد في قرية كفر كرم مسجد واحد يقول الروائي على لسان البطل "مسجدنا حيث ينبغي الاستيقاظ باكرا يوم الجمعة كي نجد مكانا في الصفوف الأولى"[30]، وقد وظفه الروائي ليكشف حقيقة أهل القرية الذين يصلون في المسجد يتظاهرون بالنقاء والطهارة أما السرائر والأفئدة فغير صالحة ولكنه لم يخصص أو يحدد شخصية بعينها وتظهر المفارقة من خلال استقطاب المسجد للمؤمنين "مساجدنا عامرة دوما"[31]، يردف قائلا على لسان عمر العميد "أناس يذهبون إلى الصلاة بشكل آلي، ثم يعودون إلى الأوهام بعد انقضاء

الفرائض"[32] وهذا ما يؤكده الروائي على لسان أحد الشيوخ عندما رأى مجموعة من الشبان تتوضأ للصلاة: "لا يتعلق الأمر بغسل الجسد، وإنما بتطهير الروح. إذا كنتم متعفنين من الداخل، لا تكفي الأنهار والبحار لتطهيركم"[33]، تظهر المفارقة من خلال تلك الشخصيات التي أثرت في المكان ولم تتأثر به كونه مكانا طاهرا نقيا يرتاده المصلون لا المنافقون لأجل تأدية الفرائض والنوافل.

محل الحلاقة: إن هذا المكان يستقطب سكان قرية كفر كرم كل جمعة بعد الصلاة يقول الروائي: "كان محل الحلاقة غاصا بالناس، إنه الموعد الأسبوعي المألوف لشيوخ كفر كرم، يوم الجمعة بعد الصلاة، يأتون لمشاهدة أحدهم يسلم رأسه لمقص الحلاق"[34]، كما تدور في هذا المكان نقاشات وكل يدلي برأيه في موضوع معين يقول الروائي في شأن عمر العميد: "إنه لا يتدخل أبدا في النقاش ويترك لنفسه الكلمة الأخيرة، لا يتحمل أن تسرق منه كلمة الختام"[35]. يتضح أن هذا المكان كان جاذبا للمثقفين وغيرهم، الشباب والشيوخ، فتحول من مجرد محل للحلاقة إلى قاعة للمناقشات والمداولات بين أهل القرية.

ملعب كرة القدم: لم يكن ملعب القرية مجهزا كملاعب المدينة وإنما كان عبارة عن ساحة كبيرة يقول الروائي: "في الساحة المحولة إلى ملعب كرة القدم، كان قطيع من الأطفال يضرب على كرة بالية في هرج ومرج، الهجمات فوضوية، والاختلالات مذهلة"[36]، إن هذا المكان استقطب الأطفال كونه الملعب الوحيد الذي يجدون فيه ضالتهم.

محل الاسكافي: هذا المحل الذي يرتاده الشبان لإصلاح أحذيتهم "يقبع محله على بعد مائة متر، على جانب بناية شنيعة، كامنة خلف واجهات قبيحة إلى حد أنك تظن أن العفاريت هي التي بنتها"[37]. إن تصوير المكان بهذا الشكل يرمز إلى وحشيته نتيجة ما يحيط به من بنايات قديمة شنيعة مخيفة يردف قائلا: "كان دكان الإسكافي مغلقا، على كل حال، إن النعال التي يقترحها لا تليق إلا بالشيوخ، وإذا كان بعضها يتعفن منذ أمد بعيد

داخل العلب الكرتونية، فليس بسبب نقص النقود"[38]، يظهر أن هذا المكان لم يعد مكانا حاضنا للشبان بل صار مخيفا طاردا لهم.

باصيل: قرية مر بها البطل، ولم يمكث فيها طويلا لأن وجهته كانت بغداد يصفها الروائي قائلا: "باصيل قرية منحصرة بين صخرين ضخمين أملسين من فرط احتكاكهما بالزوابع الرملية، تتقوقع في عمق تجويف، يذكّر بالحمام في أيام القيظ"[39]، يظهر من خلال وصف هذا المكان أنه ميّت على الرغم من وجود الأحياء فيه "كانت أكواخها الواطية تتشبث في يأس بجوانب التلال مفصولة عن بعضها البعض بشبكة ملتوية من الأزقة المثعبنة التي لا يتسع عرضها إلا للعربات اليدوية أو تلك التي تجرها البغال والحمير"[40]، يرمز المكان للجذب والعسر والعراء والفناء والضياع عبر الطرق الملتوية، يردف قائلا "يقطعها الشارع الرئيسي وقد قدّ في مجرى واد اختفى منذ العهد الحجري ، بضربة ريح عاتية، تشير الرايات السوداء المعلقة على السقوف أن السكان من أهل الشيعة"[41]، يتحول هذا المكان من مكان ميت إلى حي، ومن طارد إلى جاذب نتيجة اضطرار الحافلات والسيارات الوقوف عنده "فتحولت باصيل إلى مأوى اضطراري وإجباري لمستعملي السيارات، وتباعا للوضع الجديد، نبتت المطاعم بجميع الأشكال كالفقاقيع معلنة عن نفسها في الليل على بعد كيلومترات عديدة"[42]. وعبر تلك المفارقة اتضحت جمالية المكان الذي تحول من مكان موحش يرمز للفناء والعدم إلى مكان ينبض بالحياة فهو مأوى للمسافرين والمارة.

بغداد: اتجه البطل من باصيل إلى بغداد هاته المدينة الجميلة التي لم يزرها مذ انقطاعه عن الجامعة" كانت بغداد مدينة جميلة، بشوارعها الواسعة ، وأزقتها الغنية ، اللامعة بواجهاتها وشرفاتها المشمسة"[43]، إن هذا المكان كان جميلا جاذبا أنيقا هادئا فتحول إلى خراب وبحار من الدماء "ولكن بغداد كانت مصفاة حقيقية، ليست مدينة، كانت ساحة قتال، ميدانا للتدريب على الرمي، مجزرة ضخمة"[44]، ويردف قائلا: "لو ترى بغداد، كيف

صارت، بمزاراتها المخربة، وحروب مساجدها، ومجازر الإخوة الأعداء...ننادي إلى التهدئة فلا يسمعنا أحد"[45]، إن هذا المكان شحن بدلالات ضدية رامزة ثنائيتي الجمال والقبح، الهدوء والفوضى، السلم والحرب. إن هذه المفارقات قربت صورة المكان للمتلقي ما أدى إلى جماليته، وفي الوقت نفسه عبرت عن رأي الكاتب بلسان شخوص الرواية.

فلوجة، الموصل، البصرة: شهدت مدن العراق ومن بينها مدينة الفلوجة، الموصل، والبصرة حصارا وتدميرا هائلا، انطلقت مواجهات عدوانية واعتداءات وقوافل الأموات، يقول الروائي "نتألم للحصار المفروض على فلوجة والبصرة، والهجومات الدموية على المدن الأخرى"[46]، يستحضر الروائي هاته الأمكنة المشبعة بالرؤى والرموز فهي لم تكن مجرد أمكنة من حجر وطين، لقد كانت مدنا للتضحيات والمأساة والحزن، بكاء، حريق ودمار، دماء تسفك وأعراض تنتهك، كلها دوال تتوازى دلاليا.

عيادة "طوبة" الطبية: لجأ البطل إلى هذا المكان عند مغادرته من "كفر كرم" إلى "بغداد" حيث تعمل أخته فرح الطبيبة يصفه قائلا: "بالمدخل، ساحة صغيرة ركنت بها سيارات هنا وهناك، أحيطت بأشجار نخيل مجروحة. تغيرت الأزمنة وكذلك العيادة"[47]، استقبلته أخته أدخلته غرفة بالطابق العلوي "غرفة مؤثثة بسرير وطاولة نوم، يوجد جهاز تلفزيون على مرفع حائطي، وحمام خلف ستار بلاستيكي"[48]، يتضح أن هذا المكان الذي يستقبل المرضى صار مأوى مؤقت للبطل الذي مكث فيه لبضع ساعات ، وقد أدى الروائي من خلال سرده للأحداث والشخصيات القابعة في المكان إلى إرباك القارئ وتشويش ذهنه وتعاطفه مع البطل من خلال اللغة العنيفة التي صدرت من أخته فرح الطبيبة التي رفضت أن تستقبله في شقتها وأخذته لغرفة في العيادة، وهذا ما أدى إلى الشعور بالغرابة، يظهر أن هذا المكان على الرغم من أنه كان مأوى البطل المؤقت إلا أنه صار غريبا عنه طاردا. غادر البطل

العيادة إلى الشارع وبعد أسبوعين من التشرد وجد صديقه عمر العريف الذي أخذه إلى مطعم شعبي.

المطعم: كان البطل في حالة يرثى لها جوع وعطش فكان هذا المكان بمثابة منقذ له من الموت "أخذني عمر إلى مطعم شعبي. لم يتلفظ ببنت شفة خلال انغماسي في الأكل. أدرك أنني لست في حالة تسمح لي بسماع أي شيء .. "[49]، إن هذا المكان الذي كان يرتاده البطل كلما شعر بالجوع كان معبرا عن نفسيته فهو لم يكن مجرد مكان هندسي محض وإنما كان يستحضر فيه البطل أفكاره بعدما يسد جوعه.

عمارة سلمان بارك: أخذ عمر العريف البطل إلى مسكنه الذي يوجد في الطابق الأول من عمارة بسلمان بارك" حي في الضاحية الجنوبية الشرقية من المدينة[50]، يصف الروائي العمارة قائلا: "عمارة وسخة، يوصل إليها زقاق ملوث بالأطفال، هدّ الخراب مقدم الدرج، وتكاد الأبواب تنفصل عن أقفالها، عند صرح الدرج، تنبعث روائح قيء نتنة"[51]، إن هذا المكان يشي بدلالات القبح الخراب والدمار، إلا أنه لدى قاطنيه هو مكان أليف جاذب، أما **غرفة العريف** فيصفها البطل قائلا: "كانت الغرفة صغيرة، ومؤثثة بتقطير كما مغارة الكهوف. على الأرض مطرح ذات المكانين، وإلى جانبه صندوق خشبي عليه جهاز تلفزيون صغير، ويقرب الجدار كرسي من نوع طابوري. مقابل النافذة المطلة على الساحة خزانة بقفل. وكفى"[52].

من خلال هذا المقطع الوصفي نستشف دلالات العسر والعدم والضيق إلا أن هذا المكان في نظر البطل أرحم من الشارع الذي يعد واسعا لكنه صعب وشرس، فعبّر هذا المكان عن نفسية البطل فهو خزّان حقيقي للأفكار والمشاعر والحدوس يقول: "كنت كالساعة المعطلة، ولكنني فرح بوجودي تحت سقف، وعمر إلى جانبي لقد هدّني الأسبوعان

من التشرد المتسارع. لم يكن بمقدوري الصمود أكثر"[53]، ها هو يتحول المكان إلى ملجأ و خلاص للبطل من التشرد والعراء.

العراق: مدينة تاريخية عريقة، تزخر بمناظر سياحية لكن عساكر الأمريكان داسوها بأقدامهم يقول الروائي "ماذا يعرفون عن بلاد الرافدين، عن العراق العجيب الذي يدوسونه بأقدامهم العفنة؟ عن برج بابل والحدائق المعلقة..."[54]، يتحول هذا المكان الذي يروي حضارة أمة، بفعل الشخصيات إلى دمار وأنهار من الدماء فهذا المكان ينظر إليه المستعمر على أنه ربح مادي لا يراعون في ذلك لا التاريخ ولا الحضارة "يعتبرون بلدنا بحيرة كبيرة من النفط سيغترفون منها إلى آخر قطرة من دمائنا، إنهم ليسوا داخل التاريخ ، إنهم داخل الكنز، داخل الربح المادي، داخل الاستغلال"[55]، إن هذا المقطع السردي يشي بدلالات القهر، العنف، القتل، ويفصح عن الألم الذي يعاني منه هذا البلد، ونلاحظ من خلال هذا المقطع مشاعر الروائي التي يكنها لهذا البلد العربي العريق "العراق" والتي جاءت على لسان شخصياته التي تفاعلت مع المكان، مشكّلة بذلك علاقة تأثير وتأثر حسب المشاعر والأحاسيس المتقلبة.

من خلال ما سبق يمكن القول إن الأمكنة في رواية "أشباح الجحيم" تعددت وتباينت فكان المكان جاذبا وطاردا وأليفا، وهو لم يكن حيزا جغرافيا بل كان إنسانيا، كان رامزا معبرا عن شخصيات الرواية مشحونا بالأسى والدموع والتضحيات و الجحيم، ما أدى بالمتلقي إلى الوقوف متأملا عمق التعدد والاختلاف، مدركا بحسه القرائي ما لهذا التعدد من قيمة جمالية وأثر على جهازه الإدراكي، من خلال توظيف الروائي للمدينة والقرية فهو لم يشتغل على فضاء واحد وإنما عكس أفضية متعددة أدت إلى تقليب دلالات الصور والحفر في الحضور الرمزي لكافة الأمكنة الموجودة من قبل القارئ.

الهوامش:

1. رواية أشباح الجحيم، ياسمينة خضرا، ترجمة: محمد ساري، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط 1 2007 ص: 124.
2. م،ن ص: 133.
3. م،ن ص: 131.
4. م،ن ص: 171.
5. م،ن ص: 304
6. م،ن ص: 329.
7. م،ن ص: 380.
8. م،ن ص: 381.
9. ابن منظور، لسان العرب، المجلد 13، دار صادر ط1 بيروت 1990 ص: 414.
10. أوريدة عبود ، المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية ، دراسة بنيوية لنفوس ثائرة دار الأمل 2009 ، ب ط، ص: 29.
11. منيب محمد البوريمي، «الفضاء الروائي في الغربة: الإطار والدلالة» بغداد 1987
12. حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،ط03 2000، ص.72
13. حسين خالد، شعرية االمكان في الرواية الجديدة ، مؤسسة اليمامة ، 2000 ص 60.
14. محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2،1990 ، ص:.69
15. أشباح الجحيم، ص: 56.
16. م،ن، ص: 07.
17. م،ن، ص،ن.
18. م،ن، ص: 08.
19. م،ن، ص: 10.
20. م،ن، ص: 333.
21. م،ن، ص: 21.
22. م،ن، ص: 56.
23. م،ن، ص: 57.
24. م،ن، ص:.22
25. م،ن، ص:.29
26. م،ن، ص:30.
27. ينظر: ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد وزارة الإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة 1976، ص: 40.
28. م،ن، ص: 58.
29. م،ن، ص،ن.

30. م،ن، ص: 35.
31. م،ن، ص: 51.
32. م،ن، ص:.51
33. م،ن، ص:.52
34. م،ن، ص: 44.
35. م،ن، ص: 45.
36. م،ن، ص: 40.
37. م،ن، ص: 54.
38. م،ن، ص، ن.
39. م،ن، ص: 152-153.
40. م،ن، ص: 153.
41. م،ن، ص: 152.
42. م،ن، ص: 153.